**النقد القديم / سنة 1/ مج 2 . أـ مباركي المحاضرة 1 *: اللفظ و المعنى*  إن الدارس لأراء النقاد القدامى في ماهية الإبداع وطبيعته وشروطه’ تستوقفه على قدر كبير من الأهمية منها : هل تقدير القصيدة يعود إلى اللفظ أو المعنى ’ أم إلى الائتلاف بينهما ؟ كيف نقوم لغة الشاعر ؟ و ما هي شروط اللفظة المفردة وما صفاتها عند تألفها مع ألفاظ أخريات في سياق وتأليف ؟وما دوافع العناية بالصياغة أو بالمعاني ؟ وكل هذه القضايا تناولها النقد القديم مقترنة بمحاور تخص الشعر منها : الطبع والصنعة ’ الصورة الشعرية السرقات وكان التركيز على مسألة اللفظ والمعنى في علاقتهما بالإبداع متفاوتا من ناقد إلى آخر . بحث النقاد في ظاهرة السبق الزمني للألفاظ أو المعاني أثناء تأسيس الكلام ’ وانتهى أكثرهم إلى أسبقية المعنى على اللفظ و تقدمه زمنيا ’ فقد ذهب ابن المعتز إلى أن الكلام لا يتم إلا بما يلي : اختيار ساعة التأليف ’ التهيؤ النفسي والذهني ’ تداعي المعاني و أخيرا استحضار الألفاظ . و يتفق معه في ذلك ابن طباطبا وابن الأثير و حازم القرطاجني ’ و ينفرد ابن طباطبا بفكرة مخض المعنى نثرا في حين قال عبد القاهر الجرجاني بالتلازم. أما من حيث التمايز و التفاضل ’ تباينت الآراء و تعددت و بين أنصار المعن و أنصار اللفظ جاء فريق ثالث دعا إلى ضرورة الائتلاف بينهما لتحقيق الإبداع. بحث النقاد و البلاغيون القدامى في طبيعة اللفظة المفردة فحددوا مزاياها وعيوبها وركزوا على قدرتها على أداء المعنى دون غموض ’ وهذا ما حفز الجاحظ إلى القول أن الشعر صناعة و ضرب من النسج وجنس من التصوير ’ ومال إلى إيثار اللفظ على المعنى مادامت المعاني قدرا مشاركا بين الناس يتساوى فيها الجاهل والعالم ’ و أملى عليه هذا الموقف الدعوة إلى تميز كل شاعر بأسلوب خاص و أن الشعر لا يترجم . و يفهم من كلامه أن للشعراء ألفاظا مخصوصة لا يميلون عنها’ و أن المعنى يكسب قيمته من خلال الصياغة التي يظهر فيها ’ على الرغم من إشارته إلى المعنى المبتدع المفرد الذي لا يمكن أن يسرق مثل وصف عنترة للذباب ’ وهذا ما قال به الجرجاني و الآمدي من أن هناك معاني معروفة لا تسرق ولا تؤخذ و أن الناقد لا يمكنه وصف معنى ما بالابتداع ’ لأن هذا المعنى قد يرد في شعر لم يصل إليه وتظل المعاني عند الجاحظ تجري مجرى العادة لهذا كان يصغ معاني أبي تمام بالغرابة والخروج عن المألوف ’ و يبدو أنه متأثر ببشر بن المعتمر في قوله أن المعنى يجب أن يطابق مقتضى الحال و الكلام لا جدوى منه إن لم يؤد إلى منفعة ’ و يرجع بعض النقاد دعوته إلى تميز كل شاعر بأسلوبه إلى تأثره بفكرة الاعتزال التي تقر أن للمتكلمين ألفاظا خاصة بهم لا تدركها العامة ’ وذهب شوقي ضيف إلى أن إيثار الجاحظ للفظ مرده إلى تعصبه للعرب دون العجم ’ و تؤكد سهير القلماوي أن تفوق الأعاجم في المعاني جعل العرب يفاخروهم بالألفاظ عن طريق القران الكريم (أعجاز القران يكمن في صياغته وحسن سبكه) ’ حجة زغلول سلام في ذلك إصرار الجاحظ على أهمية الألفاظ قياسا إلى المعاني ’ أما أمين الخولي فيؤكد نشأة فكرة اللفظ والمعنى في جو ديني بينما يؤكد تلميذه شكري عياد على وعي الجاحظ بأهمية الأسلوب في تقريب المعنى . ويبدو تأثير الفكر الأرسطي (النزعة الفلسفية النطقية ) واضحا في حديث قدامه ابن جعفر عن اللفظ و المعنى في صلتهما بأركان القصيدة الأخرى كالوزن و القافية ’ من خلال تعريفه المنطقي للشعر على أنه "قول موزون مقفى يدل على معنى " إذن فهو لا يفضل عنصر على آخر ويرى أن المعاني تحدث بائتلاف هذه العناصر كلها ( ائتلاف اللفظ مع المعنى ’ و ائتلاف اللفظ مع الوزن ’ وائتلاف المعنى و القافية) . ومن خلال توليفات قدامه يتحول المعنى العام إلى معنى شعري في اقترانه باللفظ و الوزن و القافية وهذا معناه أن الإبداع فن يخص "الصياغة" أو كما قال رولان بارت "الشعر هو اللغة" وهو قريب من رأي الجاحظ . أما ابن قتيبة فقد قسم الشعر إلى أربعة أضرب : 1 \_جاد لفظه و جاد معناه ----------------------------------------تتحقق الأدبية . 2 \_ جاد لفظه - وساء معناه ----------------------- جعل ابن قتيبة يتحدث عن أدبية الصورة . 3 \_ جاد معناه وساء لفظه -----------------. --لا تتم الأدبية على الوجه الأكمل. 4 \_ ساء معناه و ساء لفظه -----------------------------تنعدم الأدبية. و وافق الأول في تغلب المحدثين من حيث ابتداع المعاني لاتساع مناحي الفكر و الحضارة و الذوق ’ ورفض مفاخرة المحدثين بالاختراع في البديع وقال انه موجود متفرق دون قصد في النص القرآني و الشعر الجاهلي ’ إنما المحدثون قصدوا إلى ذلك قصدا و أسرفوا ’ و يبدو أن هؤلاء كانوا مقتنعين بان القدماء قد أتوا على كل المعاني’ و لم يبق لهم إلا التجديد في الصياغة. وهناك من النقاد من قال بالائتلاف بين اللفظ و المعنى ’ فلا فضل لأحد على الآخر ذلك أن " اللفظ جسد و المعنى روح " فالمعنى لا ينفصل عن اللفظ على نحو ما يقرر ابن طباطبا العلوي. أما ابن الرشيق فقد دعا إلى الائتلاف و لكنه اتهم بالتناقض و تفضيل اللفظ ’ تطرق في كتابه العمدة إلى هذه القضية في باب اللفظ والمعنى ويبدو من كلامه أنه لا يؤمن بالفصل التام بينهما ’ و يرى أن أي خلل في أحدهما يؤثر في الآخر و ذلك في قوله: " اللفظ جسم روحه المعنى و ارتباطه له كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر و هجنا له ...... و كذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ.......فإن اختل المعنى كله و فسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه". ( العمدة ’ ج1 ’ص ’ 124 ) . و بعد أن بسط رأيه استعرض آراء النقاد و أشار إلى انقسامهم بين من يفضل اللفظ و من يفضل المعنى نجده يعيد ذكر الفئة التي تنتصر للفظ في قوله " و أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى " سمعت بعض الحذاق يقول : قال بعض العلماء ’ اللفظ أغلى من المعنى و أعظم قيمة و أعز مطلبا ,فإن المعاني موجودة في طباع الناس ’ يستوي فسها الجاهل والحاذق’ و لكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك و صحة التأليف ", ( العمدة ’ ص 127). وهنا يذكرنا بمقولة الجاحظ " المعاني مطروحة في الطريق " ’ إلا أن ابن الرشيق يظل مشدودا إلى فكرة الإتلاف بين اللفظ و المعنى و يسوق مجموعة من الآراء تؤيد ذلك . و قد لخص الفارابي ضرورة الائتلاف بقوله " لا الصورة مستغنية عن المادة و لا الماطة مستغنية عن المادة" و قد خلص أبو هلال العسكري إلى أن الكلام لا يحسن إلا بسلاسة ألفاظه و صحة معانيه . وممن دعوا إلى الائتلاف المرزوقي و الشريف الرضى. أما عبد القاهر الجرجاني فقد اهتم بالمعنى مع اهتمامه بالصياغة ة ذهب إلى أن الألفاظ خدم للمعاني و أوعية لها ’ فهي تتبعها في حسنها وجمالها وقبحها و رداءتها ’ كما أكد على ذلك تغير المعنى بتغير اللفظ و انتهى إلى أن الإعجاز عامة يكون في السياق و النظم و بنى نظريته في النظم على السؤال التالي :هل تتغير المعاني بتغير الألفاظ.؟ أسقط الجرجاني قيمة الكلمات المفردة و اعتبرها مجرد أدوات باردة و اصطلاحية و قيمتها تكون عندما تدخل في السياق وجمالها يكون في مكان وضعها في الجملة . قال "إنما تنسب الفصاحة إلى اللفظة من حيث اعتبار مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعنى جارتها ومؤانستها لأخواتها". كما أن المعني عند الجرجاني لا مزية له من حيث هو معنى قائم بذاته ’ إنما من جهة ما يستنبطه الفكر من ظاهر اللفظ من معان تقودنا إلى معنى آخر هو معنى المعنى ". و ما إن حل القرن السابع للهجرة حتى وجدنا حازم القرطاجني يضيف إلى تعريف قدامه للشعر عنصر "الغرابة و التخييل " و لم تعد قضية الصدق و الكذب و شرف المعنى و استقامة اللفظ مقاييس للحكم على جودة الشعر إنما الشعر عنده هو القدرة على التخييل وإحداث الصدمة. إلا أن ابن الأثير يخالف هؤلاء فيؤثر المعنى على الصيغة (اللفظ) إذ يقول " فإذا رأيت العرب قد أصلحت ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلت أطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذلك إنما هي بألفاظ فقط ’ بل هي خدمة منهم للمعاني" و المخدوم أشرف من الخادم طبعا’و قال إن المعاني التي يتناولها الشعراء تسمى عمودا وهذا العمود ذو فروع متشعبة و في هذه الفروع الدقيقة تتفاوت قدرات الشعراء على الإبداع .و من هنا قرر أن تفضيل الشعر الجاهلي على الإسلامي و المحدث لا يستند إلى سبب موضوعي ’ و ذلك أنه كلما تقدم الشاعر كلما كثرت معانيه وتنوعت لهذا فضل المحدث على سابقيه لكثافة معانيه وتنوعها ’ وقال إن أعظم شعراء العربية هم: المتنبي وأبو تمام في ابتداع المعاني و البحتري في جمال الصياغة ’ و بالتالي سقطت تلك القيمة المطلقة الثابتة التي خص بها الشعر الجاهلي دون غيرة . و كان إيثاره للمعاني حافزا إلى كثرة مآخذه على التزويق اللفظي و التوشية الكلامية ’ و أعلم أن المعنى المبتدع أبلغ من الصورة و اتهم الشعراء الذين يبالغون في التشبيهات بالغثاثة و التصنع. وعلى نفس الرأي سار ابن المعتز الذي يصرح بأن المعنى جوهر و اللفظ عرض ’ وهذا يذكرنا بقول ابن الأثير "الألفاظ خدم للمعاني" " ولا شك أن المخدوم أشرف من الخادم". ملاحظة: إن تفسير الإبداع وفق ثنائية اللفظ و المعنى لم يكن خاصية تميز بها النقد العربي القديم ’ بل إن النقد الأجنبي خاض كثيرا في هذه المسألة ’ و كانت وجهات النظر مختلفة ’ فقد قال برغسون " إن اللغة مستقلة عن الأفكار ’ ونادرا ما تنجح في الإفصاح عنها " ز أكد ماتيو ارنولد الإنجليزي أن الفكر هو كل شيء خلافا لما قال به ملارميه و فلوبير من أن الشعر ألفاظ لا أفكار ’ إلا أن الفكرة السائدة عند الفلاسفة عامة هو أنه لا انفصال بين اللغة والفكر (اللفظ و المعنى ) و قد ذهب سوسير إلى أنه يمكن مقارنة اللغة بورقة يحتل فيها الفكر وجها و الصوت يمثل الوجه الآخر و بذلك يستحيل عزل الفكر عن الصوت و الصوت عن الفكر إلا بنوع من التجريد ’ أي يستحيل فصل المعنى عن اللفظ ’ ويقر أن الفلاسفة و اللغويين اتفقوا على الاعتراف أنه بدون مساعدة العلامات اللغوية لا نكون قادرين على الفصل بين الأفكار , و لا وجود سابق للأفكار ولا شيء مميز قبل ظهور اللغة ’ أما الألسني رومان جاكبسون قال أن كل كلمة تأليف من الصوت والمعنى أو تأليف من الدال والمدلول . و خلاصة القول جاءت على لسان الشاعر الإنجليزي كولريج الذي أكد ضرورة اتحاد اللفظ بالمعنى لتحقيق الأدبية بقوله أفضل الألفاظ في أفضل الأوضاع.**